مُقَدِّمَة

تُعدّ اللغة من الموضوعات التي تعاورتها أفكار العديد من العلماء والفلاسفة والمفكرين في محاولة دءوبة من أجل الكشف عن كثير مما يحيطها من غموض، وما يكتنف طبيعتها من إبهام، وبيان كيفية توظيفها في نقل أغراض متكلميها، والتأكيد علىٰ دورها في التأثير علىٰ الفكر، أو عكس ذلك بالنظر في أثر الفكر فيها، وقد جهدوا في البحث عن أجوبة للكثير من التساؤلات الفكرية والفلسفية واللغوية المتعلقة بها؛ فمن محاولات عديدة للإجابة عن كيفية نشأة اللغة، ومحاولة معرفة اللغة الأصل التي تكلم بها آدم عليه السلام، وكيف تفرعت هذه اللغة إلىٰ لغات عدة، والأطوار التي مرّت بها اللغات، والعوامل المؤثرة في ذلك كلّه إلىٰ غير ذلك من الإشكالات التي تثيرها اللغة.

ومما يساعد في حلّ هذه الإشكالات، ويساهم في دفع البحوث العلمية إلىٰ مقاربة الحقيقة النظرُ في تاريخ اللغة القريب المعلوم، وليس التاريخ الافتراضي الذي يدّعيه بعض المتحمسين للدراسات اللغوية التاريخية -الذي بُني علىٰ أيديولوجيات أكثر مما بُني علىٰ التفكير العلمي كما سيأتي بيان ذلك-؛ فرصدُ تطورات اللغة، والمراحل التي مرّت بها، مع إدراكٍ لطبيعة التغييرات التي حدثت فيها، ومعرفةٍ للثابت والمتغير في اللغة، أو أكثرِها عرضةً للتغير، والعوامل المؤثرة في تشكّل مستوياتها من تقعيد ونمذجة وجمع لألفاظها وتوثيق لمعانيها؛ فذلك كلّه يوضّح شيئًا من حقيقة اللغة، وأشياء أخرىٰ عن وظائفها، وعن أبرز مؤثرات التغيير ومحفزاته.

إنّ من شأن هذه الدراسات التي تلتفت إلىٰ الجوانب المؤثرة في مراحل اللغة وتطورها من جهة والبحوث التي تهدف إلىٰ استقراء أغراض المتكلمين وتوظيفهم اللغة لتحقيقها من جهة أخرىٰ، بناء تصوّر عن اللغة يقترب من الحقيقة إن لم يصلها، ويكشف عن طبيعة اللغة، أو من شأنه إن لم يستطع تحقيق ذاك الهدف قطع الطريق

علىٰ التكهنات المبنيّة علىٰ أسس غيرعلمية وتفنيد الفرضيات غير الصحيحة التي مُني بها تاريخ اللغات، وهذا البحث يُعنىٰ بدراسة جانب من الجوانب التي يتوقع أنّها مؤثرة في تطور اللغة، وعاملٍ من العوامل التي يفترض البحث أنّها أسهمت في تشكّل شيء من اللغات، أو في جزء من أجزائها، وهو الأثر السياسي في اللغة.

مشكلة البحث:

إنّ المتأمل في بعض المقالات، والأبحاث الحديثة يلحظ حضورَ مصطلحات كانت غائبة قبل سنوات، وكلماتٍ تغير مدلولها، وأسلوبًا في الخطاب غيرَ معهود، ولو قارن ذلك ببعض المقالات المكتوبة في مجلات قديمة؛ فستكون النتيجة اختلافًا في الأسلوب، وتجديدًا في المصطلحات، وسيجد كلمات كانت حاضرة فحُظر استعمالها . . إلخ.

من هنا نشأت المشكلة التي يحاول الباحث في هذه الدراسة تقديم رؤيته فيها، وهي الكشف عن علاقة هذا التغيير بالقوىٰ السياسية، وعن دراسة دور السياسة في تطور اللغة، وانتقالها من مرحلة إلىٰ أخرىٰ، والمقصود بالتطور: التغيير في اللغة بصفة عامة بإضافة مفردات، واستحداث تراكيب، وتقعيد لنظامها، أو بعكس ذلك من حظر مفردات، وإهمال تراكيب، وتغيير في قواعد اللغة، وبتحويل الدلالة وتغيير المعاني، وهذا من شأنه إلقاءُ الضوء علىٰ عنصر من عناصر اللغة وهو التغيّر، أو صفة من صفاتها وعلاقة ذلك بمحيطها.

إذن الإشكالية التي يحاول البحث حلّها، ويسعىٰ في الوصول إلىٰ الحقيقة فيها هي العلاقة بين السياسة واللغة. وهل للأولىٰ تأثير علىٰ الثانية؟

وقد تفرعت من هذه الإشكالية إشكالات أخرىٰ من شأنها توضيح صورة العلاقة بين اللغة والسياسة، والوقوف علىٰ الأثر بدقة، وقد يصيب الصورة غبشٌ، أو خللٌ في النتيجة لو لم تُبحث، وأعني بها علاقة السياسة بوضعها والمقصود بوضع اللغة في هذه الدراسة مكانتها، وحضورها في الميادين كافة، ومنزلتها بين اللغات، ومدىٰ انتشارها، ولا شك أنّ مكانة اللغة مؤثرة في اللغة نفسها؛ فاللغة الواسعة الانتشار تتطلب التجديد، والتغذية المستمرة بالألفاظ والتراكيب الحديثة بالاقتراض

والاشتقاق وغيرها من وسائل التوليد اللغوي، كما تتطلب رعاية لقواعدها وصوغها في قوالب متماشية مع روح العصر من أجل نشرها وتعلّمها، وبالجملة فلا يخفىٰ مدىٰ الفرق بين لغة واسعة الانتشار بها تُكتب العلوم، وبها تُدوّن الإبداعات، ولغة لا تستعمل إلا في نطاق ضيق، ومن قبل فئة محددة.

أمّا الإشكال الآخر الذي تولّد من رحم إشكالية علاقة السياسة باللغة فهو علاقة السياسة بالدراسات اللغوية، وأثر السياسة في نشأة اتجاهات لغوية، واستحداث مناهج تغيير أخرىٰ تُعنىٰ بدرس اللغات، وهي كذلك لها تأثيرها في اللغة، وليس بخافٍ أثرُ اللغة الواصفة، وتأثير منهج دراسة اللغة علىٰ اللغة، فمثلًا دراسة اللغة وفق المنهج الوصفي سيؤثر علىٰ اللغة في مستقبل أمرها، وكذلك المنهج المعياري ستنعكس آثاره علىٰ اللغة، وهكذا.

وقبل أن ندلف إلىٰ فرضيات البحث ينبغي التوقف عند التنبيه علىٰ حدود البحث وإطاره العام، ولن يتم ذلك إلا بتحديد أركان البحث الذي يقوم عليه؛ فالأول: المقصود بالسياسة، والثاني: اللغة المدروسة، والثالث: الزمن الذي يرصد فيه أثر السياسة في اللغة.

أمّا السياسة؛ فقد ذكر صاحب موسوعة السياسة أنّ لها تعريفات عدة، فمنها: «السياسة: هي النشاط الاجتماعي، الفريد من نوعه، الذي ينظم الحياة العامة، ويضمن الأمن ويقيم التوازن والوفاق -من خلال القوة الشرعية والسيادة- بين الأفراد والجماعات المتنافسة والمتصارعة في وحدة الحكم المستقلة علىٰ أساس علاقات القوة، والذي يحدد أوجه المشاركة في السلطة بنسبة الإسهام والأهمية في تحقيق الحفاظ علىٰ النظام الاجتماعي وسير المجتمع»[1].

وفي تعريف لا يبتعد كثيرًا عن الأول، يقول صاحب الموسوعة: «السياسة: هي النشاط الاجتماعي المدعوم بالقوة المستندة إلىٰ مفهوم ما للحق أو للعدالة لضمان الأمن الخارجي والسلم الاجتماعي الداخلي للوحدة السياسية، ولضبط الصراعات والتعدد في المصالح ووجهات النظر للحيلولة دون الإخلال بتماسك الوحدة

(١) عبد الوهاب الكيالي، دار الهدىٰ للنشر والتوزيع، ٣/ ٣٦٢.

السياسية باستخدام أقل حد ممكن من العنف»[1].

ويُفهم من التعريفين أنّ السياسة تنظيم لمصالح فئة من الناس، ورعاية لشئونهم داخل محيط تلك الفئة، وخارجها، وترتيب طرق مناسبة لإدارة شئون الناس في الدولة، وإدارة العلاقات مع العالم خارج الدولة، ويجب التنبيه علىٰ أنّ الدراسة تتبنىٰ هذا المفهوم للسياسة؛ فالمقصود بها في هذه الدراسة هو إدارة شئون الدولة داخليًا وخارجيًا، وليست معنية بكلّ معنىٰ سلبي اكتسبته لفظة السياسة، ودون تحميل الدراسة تبعات تعريفات للسياسة لا تتوافق والموضوعية.

فالمراد بالسياسة هنا كلّ سياسة سواء بلغت قمة العدالة ونشر الحق والفضيلة، أو هوت وبلغت القاع في الظلم والبطش ودعم الشر والرذيلة، ثم المقصود بالأثر التدخل المباشر من السياسي، أو أثر تغيير المنظومة السياسية، وما يتبعه من تغيير في اللغة، وهو عائد إلىٰ الأول بلا شك.

أمّا التنبيه الثاني فيختص بحدود الدراسة، اللغة المدروسة، وزمن الدراسة، وقد جعلت اللغة العربية نموذجًا للغات؛ لما تتمتع به من تاريخ ممتد، ولما تعرّضت له من منعطفات تاريخية، ولم أقتصر عليها، بل عرجت علىٰ غيرها من اللغات؛ وذلك لأنّ الاقتصار علىٰ اللغة العربية من شأنه أن يفقد نماذج واضحة في تأثير السياسة علىٰ اللغة، ولو اقتصرنا علىٰ اللغة العربية قد يصل البحث إلىٰ نتائج غير دقيقة، فربما تهيأت للعربية أسباب تمنع تدخل السياسة، أو تقللها بعكس اللغات الأخرىٰ.

وكذلك التحديد الزمني للدراسة؛ فزمن الدراسة غير محدد بتاريخ معين، وليست مقتصرة علىٰ زمن بعينه لا تتجاوزه؛ لأنّ هدف البحث اختبار فرضياته، والكشف عن علاقة السياسة باللغة، ولا يُعنىٰ بتتبع تاريخي لحصر كلّ أثر سياسي في اللغة.

فرضيات البحث:

يفترض البحث أن للسياسة تأثيرًا في اللغة سواء علىٰ المتن اللغوي، أو المنزلة اللغوية، وسينطلق في رحلة زمانية عبر التاريخ ليرصد أبرز التغيرات اللغوية، وأثر السياسة فيها؛ ليثبت هذه الفرضية، أو ينفيها.

---

(١) موسوعة السياسة ٣/ ٣٦٢.

وأخرىٰ مكانية؛ ليقف علىٰ دور السياسة في اللغات المعاصرة، وسيتركز الحديث علىٰ أبرز المنعطفات التي مرت بها اللغات فهي أدعىٰ لرصد تلك العلاقة.

كما أنّ البحث يفترض أنّ اللغة العربية ليست بمنأىٰ عن هذا التأثير، ولا يعني ذلك تساوي اللغات؛ بل اللغات مختلفة في التأثر بالسياسة، ومتفاوتة في مدىٰ التأثير، لكنّ هذا التفاوت لا يخرجها من دائرة التأثر قلّ، أو كثر.

وكذلك يفترض البحث أنّ لكل أمة لغة تمثل هويتها، وتحافظ عليها، وتتفانىٰ في خدمتها، ونشرها، وأن من أولويات السياسي المحافظة علىٰ الكيان، والهوية، وتأتي اللغة في مقدمة الهوية، وما تتميز به أمة عن أخرىٰ خصوصًا إذا اقترنت هذه اللغة بدين الأمة، وحضارتها، وتراثها، ومجدها، فمن فرضيات البحث أن السياسيين العرب هم أولىٰ من يهتم بلغتهم. وسيرصد البحث -بإذن الله- مواقف بعض السياسيين تجاه لغاتهم.

يفترض البحث أن القواعد والأصوات في اللغة العربية الأقل تأثرًا وتغييرًا، وأن الألفاظ «المفردات» ودلالتها هي الأكثر عرضة للتغيير، والتدخل.

ويفترض البحث كذلك تدخلًا من السياسي في اللغة بطريقة غير مباشرة؛ كالتعليم، والإعلام، وهما جزءان من الدولة، وبعض المؤسسات، وسيحاول البحث الكشف عن تأثير هذه المؤسسات بالإضافة إلىٰ المؤسسات الدولية كاليونسكو، ومنظمة التجارة العالمية، والفرانكفونية . . إلخ.

كما يفترض البحث أن للسياسة تأثيرًا في قضايا اللغة الكبرىٰ؛ كحوسبة اللغة، وتعليم اللغة للناطقين بغيرها، ونشرها، والتعليم باللغة الأم، والترجمة، والثنائية اللغوية، وغيرها من القضايا اللغوية المشهورة.

ومن فرضياته: علاقة اللغة بالدراسات اللغوية، ومناهج دراسات اللغة؛ لتمكنه من حفظ الهوية اللغوية ونشرها، وتساعده في استثمارها الاستثمار الأمثل.

ويفترض البحث خصوصًا في هذا العصر، والذي لا تخلو فيه دولة من خطة استراتيجية، ومفكرين يستشرفون المستقبل = يفترض ألا تخلو دولة من تخطيط لغوي يصحح لها المسار، ويرسم الطريق اللغوي.

أهداف البحث:

يسعىٰ البحث لتحقيق جملة من الأهداف منها:

- محاولة الكشف عن طبيعة اللغة بدراسة جانب من جوانبها، وصفة من صفاتها، وهي: التغيّر، وعلاقة ذلك التغيّر بمحيطها متمثلًا في الجزء السياسي منه.

- بيان علاقة السياسة بدراسة اللغة، ودور السياسة في نشأة بعض المناهج اللغوية، ودعمها، ومحاربة الأخرىٰ.

- الكشف عن دور السياسة في قضايا اللغة: تعليمها، ونشرها، والتعريب، وثنائية اللغة، وغيرها من قضايا اللغات.

- محاولة معرفة أهداف السياسي التي يسعىٰ لتحقيقها باللغة.

هذه أهم الأهداف التي يطمح البحث في تحقيقها بالإضافة إلىٰ ما ذُكر في فرضيات البحث.